هذه أطراف من تأملات أمين . ينبغى ألا نخلط تاريخنا بحاضرنا ، وينبغى أن نميز بين ما عاناه الأجداد وما نعانيه نحن الآن . . هذا التمييز فصل من فصول العناية بالألفاظ . . فإذا أردنا أن نقيم حياتنا على نوع من التواصل احتاج الأمر إلى أن نقلب فى الألفاظ مرة أخرى . إن الألفاظ لايمكن أن يستعبدها وجه واحد أو عصر واحد من القيم . . ولكن هل يعنى هذا أن يستوعب اللفظ كل شىء ؟

أليس هذا هو السؤال الذى واجهه علماء الأصول منذ وقت بعيد ؟ من الطبيعى إذن أن يتناول أمين تفتح اللفظ وسط التغيير فى حياة الإنسان . أخطر المسائل هى البحث عن طبيعة هذا التفتح أو طريقة التعامل معه . ذلك أن التعامل مع إمكانات اللفظ ليس أقل من مشكلة العلاقة بين الحاضر والماضى ، بين ما نسميه المتجدد والثابت ، أو ما قد نسميه المقيد وغير المقيد . . وبعبارة أخيرة : إن تاريخ الثقافة العربية لم يكتب بعد ، فكل ما نعلمه هو أطراف من القضايا التى تكونت فى ظل إهمال تاريخ الألفاظ وحياتها . والغريب أننا نتحدث فى أكثر الأمور خطرا من مثل مفهوم الأخلاق فى الثقافة الإسلامية دون أن نعرف كيف تطور استعمال لفظ على يد باحث مثل ابن مسكويه عن استعمالات أخرى على أيدى غيره من الباحثين والوعاظ والزهاد ، والمعنيين باستقامة الحياة بوجه عام .

إن وقار الثقافة لاينفصل فيما كان يقول أمين عن التمييز بين أطوار تاريخ الألفاظ ، وما ينبغى أن يوضع كل شىء فى وعاء واحد . كان أمين شديد الضجر حينما يرى أن حدود الألفاظ لا تأخذ من اهتمام صناع النهضة ما تستحق وسط هذا النشاط الهائل الذى يستهدف على الدوام الربط والتواصل . . ولكن السؤال الشاق الذى يطوف بذهن أمين المشتغل بأصول الفقه هو البحث عن طبيعة هذا التواصل . . كل شىء كان يصب آخر الأمر فيما صنعت بنا الألفاظ ، وما نريد أن نصنعه بها . وليس من الحكمة فى شىء أن نتغاضى عن حياة الألفاظ لأننا مشغولون بطائفة أو طوائف من الاهتمام . . إن اهتمامنا يجب أن يتحدد فى ضوء حياة الألفاظ . . ليس لاهتمامنا وجود موضوعى ما لم نعن بحياة الألفاظ ودلالاتها . حياة الألفاظ هى صورة اهتمامنا الذى نرجوه والذى نخشاه ، الذى نحذفه ، والذى نثبته . . ومن ثم كانت النهضة مسئولة فى رأى أمين عن أن تكون ذات وجه لغوى مشرق . والعالم العربى تتقاذفه أمواج . يعشق لونا من الحاضر ، ويعشق حياة الذين تقدموه . يعشق ماضيه ، ويكبر آباءه وأجداده ، ويحاول